الشعر والشعراء

وتطوُّر الشعر العربي

الشعر لسان الوجدان ، وترجمان الجنان ، وسجلّ الحكمة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة ، ومرآة آداب الأمم ، وصحيفة أخلاقها ، وديوان أخبارها . ينجم عن خطرات فكرية اختبأت في ناحية من النفس ، حتى اذا امتزجت بالعواطف الحساسة الرقيقة ، ودبَّ دبيبها ، فاحدثت نشوة في الروح ؛ وتسابقت الى الافهام ، فعلقت بالخواطر والاوهام ؛ تصرفت بها القوة الناطقة ، فصقلها البيان حِكَماً زاهرة ، وغرراً ساحرة

وليس بشعر الأ ما يهيج ويغضب ، ويسرُّ ويطرب ، ويلعب بالنفوس ، لعب الخمر بالرءوس ، فيتمثل به جمال الوصف ، وحسن التصوير ، وتحليل مشاعر النفس ، وسبر اغوار الحياة ، وتمثيل الحقيقة فيترك في النفس ما تتركه النغمة الموسيقية من الأثر في نفس السامع

ولا غرو فما الشعر والموسيقى الاَّ واحد ، بل هما صنوان : هذا يصوّر لنا جمال الطبيعة بالخيال والبيان ، وتلك تعبر عنه بالأنغام والالحان . ولولا مايتخلله من تلك النغمة الموسيقية ، والروح السارية التي تستطير الألباب ، وتستفزُّ النفوس بالتصور الدقيق ، واللفظ الرشيق ؛ لكان الشعر عين الفلسفة ؛ لان الاول غذاء النفس ، وتلك غذاء العقل : ذاك يغذى النفس بنغماته ورنَّاته ، وأهازيجه ونبراته ، وتلك تغذي العقل بحججها القاطعة ، وبراهينها الساطعة

وابلغ الشعر واسماه ما يعبر عن عواطف الشاعر ؛ فتبرز به الخيالات والتصورات بروز المحسوسات ، ويحيط بما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والحنين ؛ جامعاً بين الاغراض النفسية ، وسبر غور الحقائق الكونية ؛

متشياً مع الحقيقية التي هي وعاؤه، تحف به مواكب التصوير، وفخامة التعبير، وجلال العظمة، ورونق الجمال

الشعراء

أما الشعراء بالحقيقة فهم نبراس الامة، ومصدر الحكمة، ورسل العواطف المكنونة في الصدور، والشموع النيرة المتقدة التي تشتعل لتنير، وتذوب لتخترق الظلمات والدياجير؛ فتشرف بالكون على حياة أسمى، وفكر أرقى، وترفعه من أسفل سافلين، الى أعلى عليين

الشعراء المجيدون في كل عصر ومصر تختلف مميزاتهم الأدبية ومنازعهم الشعرية وأساليبهم الخاصة التي يخطها الواحد لنفسه، فينشأ على عكسه الآخرون: فهذا ولهٌ بحسن الصياغة وقوة التأليف وطلاوة الديباجة، فهو أشبه بالصائغ الماهر المتفنن الذي يقضي سحابة نهاره بجودة عمله وحسن ابداعه ليبرز الموجود من الحالي النفيسة زينةً للناظرين. وذاك هائم بحسن التصوير مع رقة التعبير، فيغوص بفكره وتصوراته الى أعماق احساس القلب ليستخرج من كنوزه الثمينة اللؤلؤ والمرجان فيمحو شخصه أمامك حتى لا تكاد تراه ثم لا يلبث أن يجيء بالخواطر المبتكرة والدر النفيس الذي يدوم بدوام الاجيال حياً خالداً في نفوس الرجال. وذلك هام في عالم الجمال فسبح في سماء الخيال وضرب على وتر شعور النفس والهام الحس فجاء بالتعابير البهجة والتشابيه المرقصة الخلابة التي تمثل الحقيقة في جانب الخيال فيبهجك ويطربك، ثم لا يلبث أن يجول فيزول ويترك في المخيلة للدلالة عليه اثراً ضئيلاً ورسماً محيلاً. أما الشاعر الفرد فهو من جمع بين مختلف هذه الصفات والمميزات وسما الى غاية ما يرقى اليه استعداد الفكر في مراتب الابداع وقوة الاختراع فجاء شعره آية الآيات ومعجزة المعجزات. ويقال لأولئك شعراء ذلك العصر، أما هو وحده فنابغة الدهر

الشعر في التاريخ

الشعر لم تخل منه أمة من الامم قديما في حديث ؛ اذ هو رفيق الانسان في كل زمان ومكان ، ومصدر الحكمة وترجمان كل امة ومرآتها التي تنعكس فيها حضارتها وملكاتها وانفعالاتها النفسية

بيد أن الشعوب السامية كانت أكثر الامم اعراقاً فى الخيال وأقربها الى التصورات الشعرية . ومن تصفح التوراة ير بها امثلة كثيرة من التصور الشعري . وهناك اسفار كلها شعر كسفر ايوب وسفر اشعيا ومزامير داود . ولما كانت اللغة العربية أكثر استعداداً من العبرانية للتعبير الشعري — لما فيها من التصرف باساليب البيان — كان العرب أكثر استعدادا من العبرانيين لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال

وحسبك ان لهم من مدونات الشعر في عصر واحد ما لم يجتمع عند أمم العالم في عدة قرون . فقد ذكر مؤرخو العرب أن الاصمعي كان يحفظ ١٦٠٠٠ أرجوزة وأن حماداً الراوية كان يروي ٢٧٠٠٠ قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة ، وأن أبا تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر المشهور صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار الجاهلية ١٤٠٠٠ أرجوزة غير القصائد والمقاطيع مع أن إلياذة هوميروس وإيذيسته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠٠٠٠ بيت . وانك لتجد لدى المقابلة بينهما — مع ما يظن فى ذلك العدد من المبالغة — يوناً شاسعاً رغم قول عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ولطالما اشتد ولعهم بالشعر حتى كان له عندهم سوق رائجة وقيمة عظيمة حتى لم يكادوا يتركوا شيئا مما وقع نظرهم عليه من مستحسن ومستقبح وما اعتقدوه في انفسهم وما عرفوه من الحكمة البالغة الا نظموه شعرا

الشعر العربي

لا مراء بأن التصورات الشعرية عند العرب قديمة للغاية ، ولا يبعد أن يكون النظم المقفى الموزون حادثاً جديداً تناولوه عن طريق الأمثال بادىء بدء ثم اتفق لأحدهم أن جاء به شطرين مسجوعين فحذا حذوه الجميع من حيث التقفية والوزن لما بهما من الرنة الموسيقية الخلابة

بيد أنه كان الرجل في الجاهلية ينظم ابياناً من الشعر لامر يبدو له ، حتى اذا جاء زمن هاشم بن عبد مناف قُصّدت القصائد ونهض أمرؤ القيس وتتابع بعده الشعراء فنهض الشعر من كبوته وعظم فيهم مقام الشاعر ونزل من نفوسهم وافئدتهم منزلا لا ينزله الملوك والامراء وذوو اليسار والكبراء

ولم يتسنَّ للامة العربية بلوغ شأوها المتعال الذي لا يتطالّ اليه متطالّ الا بخروج النبي العظيم وظهور القرآن الكريم ، وآنئذ نهض سيد الفصحاء والبلغاء وامام الفلاسفة والحكماء الامام علي بن أبي طالب (ع) واقتفى أثره العلماء والمحدثون من أهل الكوفة والبصرة والحجاز وجعلوا اللغة بشارة منه دروسا تقرأ وفنونا تدرَّس ، وقيدوا اوابدها ودوّنوا مفرداتها ، فانتعشت الآداب العربية وارتفع شأنها ، وقامت المرأة تخطب في الأندية وبين الصفوف وتبرز في مقدمة السابقين لخوض عباب البحث في ميدان الحركة الفكرية بفضل ذلك الإمام العظيم

قضى الامام الكبير نحبه وقام بعده الامويون والعباسيون آخذين بناصر العلماء واكرام الشعراء ، فعرّبت الكتب ودوّنت الدواوين وظهرت التآليف الكثيرة ونبغ من الشعراء جمّ غفير كالشريف الرضي ومهيار الديلمي والسيد الحميري وأبي الطيب المتنبي وكُثَيِّر عزَّة ودعبل وبشّار بن بُرد وابي العتاهية وابي نُواس والبُحتري الى أمثالهم من فحول الشعراء الذين نهضوا بالشعر نهضة سامية وسموا به الى الافق الأعلى . وحسبك نابغات العرب اللائى يرزن بحلبة الشعر

في كل عصر فبارين أدباءها الكبار وأتين بقطع كالروض تنسيك بلاغة البلغاء وسلاسة المترسلين والادباء ، كزينب وسكينة والخنساء وجنوب وعلياء والسوداء الى غيرهن من الاديبات والنابغات اللواتى اشتهر أمرهن بين قديم وحديث

ولم يزل الشعر سامي المكانة عزيز الجانب عند العرب زمنا طويلا حتى داخلتهم العجمة وشذّت لغتهم عن الفصاحة وسرى الخول في كل بقعة من أنحاء الامة العربية فتهدّم مجد السلف ولعبت به أيدي الضياع والتلف فخمدت جذوة الشعر وانطفأت شعلته بعد ذاك السمو والرفعة وتلك العزة والمنعة ، ومكث بين من معضلات أسقامه ومزمنات آلامه بسبب النفوذ الاجنبي المنتشر في الاقطار الشرقية العربية ، حتى تسنى لفريق من أبناء العربية مداركة ذلك الانحطاط بعقد مجالس الأدب ، وهبّ المرحوم الخديوي محمد علي باشا لنشر المعارف في مصر وقام السيد الافغاني دائبا يبث روح النهضة فى الشرق وقام تلاميذه من بعده ـ فى العراق ومصر وسوريا ـ مقتصين اثره فأنشأو الصحف المديدة ونهضت مصر فى البرهة الاخيرة طالبة استقلالها فعصفت بها ريح الثورة الوطنية وحذا حذوها طالبو الاصلاح فى الاقطار العربية فسرت فى الشرق عامة روح جميلة بسبب تلك العوامل الجمة افضت لانتعاش اللغة العربية ووجود ادباء عديدين وشعراء مجيدين طالما نشر لهم في الصحف السيارة شعر فاخر يذكّر بالعصر العباسي الزاهر

ومما لاريب فيه ان مانشاهده بأم العين من دلائل الحركة الفكرية المنتشرة في الاصقاع العربية ، وانتعاش الروح الوطنية في احنائها سينجم عنه تطور في الآداب والفنون والرقي والعمران ، وستلعب دورا خطير الشأن في المستقبل العاجل . ولله در القائل :

ما إن تقوم وترتقي لغة ... مالم تقم في الأرض دولتها

صيدا (جبل عامل) محمد كامل شعيب